صفات عباد الرحمن

٥- الاعتدال في الإنفاق

• الخطبة الأولى :

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

لازلنا نعيش في رحاب القرآن مع عباد الرحمن ، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، والذين وصفهم الله تعالي في سورة الفرقان .

وصف حالهم في أنفسهم ، ووصف حالهم مع النّاس ، ووصف حالهم معه سبحانه . ثمّ وصف حالهم في أموالهم فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ (١) .

فليس المفترض في عباد الرحمن أنّهم قوم لامال لهم ، لا ، ليس الفقر من خصائص هذه العبوديّة للرحمن ، فقد يكونون أغنياء .

وقد وصف الله روّاد المساجد . . روّاد البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، فقال : ﴿ . . يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذكر الله . . . . . ﴾ (٢) فهم - بلغة العصر - (رجال أعمال) لهم تجارة ولهم بيع ، ولكن ذلك لا يشغلهم عن واجبهم نحو ربّهم .

وخاطب الله المؤمنين بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ الله . . ﴾(٣) ومعني هذا: أنّ لهم أموالاً وأولاداً ،وليسوا رهباناً ولادراويش ، ولَكنّهم مأمورون ألاّ تلهيهم أموالهم ولا أولادهم عن ذكر الله ، ذكره

---

(١) الفرقان : ٦٧

(٢) النّور : ٣٦، ٣٧ . وتمامهما : ﴿ فى بيُوت أَذنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ الله وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَالأَبْصَارُ » .

(٣) المنافقون : ٩ . وتتّمتها : ﴿ . . وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ .

بالقلب ، وذكره باللّسان ، فعباد الرحمن لا بأس أن يكون لهم أموال ، والمال في نظر الاسلام نعمة يجب أن تُشكر (١)، وهو في نظر الإسلام أمانة يجب أن تُرعي ، وهو في نظر الإسلام ضرورة - من الضروريّات الخمس - يجب أن تُحفظ .

والمسلم في ماله مُستخلف ، هو في الحقيقة مال الله وهو أمين عليه . . خليفة عليه نائب عن ربه في حسن تنميته وإنفاقه ، ولذلك قال الله تعالي : ﴿ . . وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ . . ﴾ (٢) .

وإذا كان المال مال الله ، والإنسان مُستخلفاً فيه كأمين الصندوق ، فيجب عليه أن يُراعي تعليمات صاحب المال وتوجيهاته : ماذا يريد منه ؟ وماذا يرضاه ؟ وماذا يسخطه؟ وماذا يأمر به ؟ وماذا ينهي عنه ؟

لايجوز لموظف في شركة أو مؤسّسة أن يخالف عن أمر صاحب المؤسّسة ويتصرّف كما يشاء ، فالمسلم موظف في مال الله ، أمين عليه .

ولله تعالى تعليمات في شكل المال :

تعليمات تتعلّق باكتسابه ، أن يُكتسب من حلّه ومن وجوهه المشروعة ، وتعليمات تتعلّق بتثميره وتنميته ، وتعليمات تتعلّق بإنفاقه واستهلاكه وتوزيعه ، والآية التي معنا ركّزت علي معني معيّن مهمّ ، هو : كيف ينفق المال ؟

قد يجمع المال من حلّه ، قد يكتسبه الانسان من وجوهه المشروعة ، ولكنّه بعد ذلك يبخل به عن حقّه يشحّ به أن يبذله لما يحب الله تعالي ويرضي ، أو يتلفه ويبعثره ذات اليمين وذات الشمال .

والأمّة قد تُصاب في أغنيائها من وجهين :

إما أن تُصاب من ناحية ذلك الغنيّ الشحيح الذي لا يعرف لله حقا ، ولا يعرف في ماله للناس حقًّا ،يبخل به عن كلّ واجب .

وإمّا أن تُصاب من ناحية ذلك المتلاف المبذّر الذي لا يبالي أين ذهب المال ؟ يبذله هنا وهناك ، لا يقف عند حدّ ، ولا يقف عند شرع .

---

(١) ولهذا بوّب الإمام النووي في (رياض الصالحين) باباً سمّاه : باب فضل الغني الشاكر وهو من أخذ المال من وجهه وصرفه في وجوهه المأمور بها .

(٢) الحديد : ٧ ،وتتمّتها : ﴿ . . فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ .

ولكن المال ينبغي أن ينفق في وجوهه المشروعة بلا إسراف ولا تقتير ، هذا هو خلق الإسلام : القصد والاعتدال .

لذلك جاء في آية أخرى من وصايا القرآن . . من وصايا الله لعباده في سورة الإسراء : ﴿ ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ { أشباههم في الشرّ والمعصية والجحود بنعمة الله } ، وكان الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا { إذا أتاك القريب أو المسكين أو ابن السبيل يرجو منك شيئاً ولا تملكه وتبتغي رحمة من الله ورزقاً يسوقه إليك } فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا { عدهم وعداً جميلا إذا وسّع الله عليك وأفاء عليك من فضله } وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ { كناية عن البخل بما هو واجب } وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ { فتتوسّع وتسرف } فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾(١) . فإنّك إذا أسرفت قعدت محسورا ، وإذا بخلت وقتّرت قعدت ملوما ، وأنت ملومٌ محسورٌ علي كلّ حال إذا لم تتبع أمر الله ونهيه } .

هذا هو القصد والاعتدال ، هذا هو دستور الإسلام .

كان النبي ﷺ يسأل الله ويقول: « اللّهمّ وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الإخلاص في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغني »(٢)

والقصد : الاقتصاد والاعتدال .

روي الإمام البزّار من حديث حذيفة أنّ النّبيّ ﷺ قال : « ما أحسن القصد في الغني ، ما أحسن القصد في الفقر ، وأحسن القصد في العبادة »(٣).

حتي العبادة القصد والاعتدال فيها مطلوب .

وروي الإمام أحمد من حديث أبي الدرداء أنّ النّبيّ ﷺ قال : « من فقه الرجل

---

(١) الإسراء : ٢٦-٢٩

(٢) رواه النّسائي والحاكم عن عمّار بن ياسر ، وذكره في صحيح الجامع الصغير وزيادته برقم (١٣٠١) .

(٣) قال الهيثمي : رواه البزار من رواية سعيد بن حكيم عن مسلم بن حبيب ، ومسلم هذا لم أجد من ذكره إلاّ ابن حبان في ترجمة سعيد الراوي عنه ، وبقيّة رجاله ثقات (مجمع الزوائد : ١٠/٢٥٢) .

رفقه في معيشته » (١) : هذا دلالة علي فقهه وعلي نور بصيرته ، إنّه يقتصد ، ولايبذّر ولا يسرف ، ولا يبخل ولا يقتّر ، فهو وسط من أمّة وسـط ، و « خير الأمور أوساطها» (٢) .

وروى الإمام أحمد كذلك من حديث ابن مسعود ، أنّ النبي ﷺ قال : « ما عال من اقتصد » (٣) ، أي : ما افتقر من اقتصد ، وذلك لأنّ الذي يقتصد ويعتدل في إنفاقه ، يدّخر بعض الشيىء من شبابه لهرمه ، ومن صحّته لسقمه ، ومن غناه لفقره ، ومن اقتصد شيئاً للمستقبل فقلّما يفتقر .

الإسلام يطلب الإنفاق ، ومن صفات المتقين أنهّم ينفقون ، ولكنّ الله حينما وصف المتقين في مطلع سورة البقرة قال : ﴿ . . وِمَمَّا رَزَقْنَاهُم يُنفِقُونَ ﴾ (٤) أي : ينفقون بعض ما رزقهم الله ، وليس كلّ ما رزقهم الله .

والله حين أوجب علي النّاس الزكاة ، أوجبها في بعض المال : ربع العشر ، وفي بعض المال : نصف العشـر ، وفي بعض المال : العشر ، ولم يكثّر علي الناس ، كما قال الله تعـالى : ﴿ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ (يشدّد عليكـم) تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ (٥) .

---

(١) قال الهيثمي في المجمع : رواه أحمد، وفيه أبو بكر بن أبي مريم وقد اختلط(٤/ ٧٦) وعن جابر مرفوعا: « الرفق في المعيشة خير من بعض التجارة » رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه عبد الله بن صالح المصري، قال عبد الملك بن شعيب : ثقة مأمون ، وضعفه جماعة (مجمع الزوائد : ١٠/ ٢٥٢) .

(٢) لم يذكره الأستاذ القرضاوي علي أنّه حديث نبوي ، وقد أورده ابن السمعاني في ذيل تاريخ بغداد بسند مجهول عن علي مرفوعا به ، وهو عند ابن جرير في التفسير من قول مطرف ابن عبد الله ويزيد بن مرة الجعفي ، وكذا أخرجه البيهقي عن مطـرف ، وللديلمي بلا سند عن ابن عباس مرفوعاً : خير الأعمال أوسطها [المقاصد الحسنة للسخاوي : برقم ٤٥٥] وتشهد له نصوص كثيرة في القرآن والسنة .

(٣) رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ، قال الهيثمي : وفي أسانيدهم : إبراهيم ابن مسلم الهَجَري وهو ضَعيف ، وعن ابن عباس مرفوعا : « ماعال مقتصد قط » رواه الطبراني فيهما ، ورجاله وثقوا وفي بعضهم خلاف كما قال الهيثمي (مجمع الزوائد : ١٠/ ٢٥٢) .

(٤) البقرة : ٣ . (٥) محمّد : ٣٧ .

ولذلك لم يسألنا إلاّ العفو : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ . . ﴾ (١). ﴿ . . وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ، قُلِ الْعَفْوَ . . ﴾ (٢) . أي : مافضل عن الحاجة .

ومن هنا جاء في الحديث : « لا صدقة إلاّ عن ظهر غني » (٣) . لم يطلب الاسلام منك أن تنفق ممّا تحتاج إليه ، من فعل هذا إيثاراً فهذه فضيلة وليست فريضة ، كالذين مدحهم الله تعالى في كتابه بقوله : ﴿ . . وَيُؤْثِرُونَ عَلَي أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِه فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٤) ، والأبرار الذين أثني عليهم فقال : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَي حُبِه مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (٥) . يحبون الطعام ، ويتوقون إليه ، وهم في حاجة إليه ، ولكنّهم يبذلونه لله : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ (٦) .

المسلم ينفق ماله بغير إسراف ولا تقتير ، لا يبخل علي نفسه ، فإنّها أوّل ماينبغي النفقة فيه .

بعض النّاس يحوز المال فيقتّر علي نفسه وأهله ، المال في يده وهو محروم منه ! وهذا هو الذي قيل فيه : بشّر مال البخيل بحادث أو وارث : إمّا حادثة تأكل أخضره ويابسه ، وإمّا وارث يتمتع به من بعده ، وربّما يلعنه ويذمّه ، فما انتفع منه بشيء !

ككلب الصيد يمسك وهو طاو   فريســـــــته ليأكلها سواه !

جاء رجل إلي النبي ﷺ فلم تعجبه هيئته ، فسأله : « ألك مال » ؟ قال : نعم، قال : « أيّ المال عندك » ؟ قال : من كلّ المال آتاني الله [أي عنده الإبل والبقر والغنم والزروع والثمار] ، قال : « فإنّ الله يحبّ أن يري أثر نعمته عليك »(٧) .

وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (٨) : والحديث ليس باللّسان فقط ، ولكن بالحال أيضاً .

---

(١) الأعراف : ١٩٩ .   (٢) البقرة : ٢١٩ .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة ، وقال الشيخ أحمد شاكر : إسناده صحيح . انظر : الحديث (٧١٥٥) ، وذكره البخاري معلقا في كتاب الوصايا من صحيحه .

(٤) الحشر : ٩ .   (٥) الإنسان : ٨ .   (٦) الإنسان : ٩، ١٠ .

(٧) رواه الترمذي والحاكم عن عبد الله بن عمرو ، وحسّنه في صحيح الجامع الصغير (١٨٨٧) ، ورواه البيهقي في (الشعب) جزءا من حديث عن أبي سعيد ، وصحّحه في المصدر السابق (١٧٤٢) .   (٨) الضّحي : ١١ .

لاداعي أن تجوّع نفسك ، وأن تقتّر علي نفسك وأهلك والمال في يدك ، أنفق باعتدال علي نفسك وأهلك ، وفي الحديث : « أفضل دينار ينفقه الرجل : دينار ينفقه علي عياله ، ودينار ينفقه علي فرسه في سبيل الله ، ودينار ينفقه علي أصحابه في سبيل الله » (١) .

وقال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاصّ : « وإنّك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلاّ أُجِرْتَ عليها ، حتي ما تجعل في فِيِّ امرأتك » (٢) .

فالنفقة علي النفس وعلي البيت هى أوّل ما ينبغي أن يفعله الإنسان ، ثمّ بعد ذلك ينفق علي من حوله من الأقارب والجيران ، فهؤلاء لهم حقوق ، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول : « ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائع إلي جنبه وهُو يعلم » (٣) .

ليس من الإسلام في شيىء أن تأكل ملء بطنك ، وتضحك ملء سنّك ، وبجوارك إنسان يئنّ من الجوع ، ولا يجد من يقدّم له ما يقيم أوده ، وما يطفىء حرقه ، ليس هذا من الإسلام ولامن الإنسانيّة في شيىء ، ولذلك برىء منه النَّبيّ ﷺ .

إذا كان لك قريب فينبغي أن يكون لقريبك هذا عند عسره وفقره حظّ من مالك : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ . . ﴾ (٤) .

والأقربون أولى بالمعروف ، كما قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ، قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ . . ﴾(٥) ، فبدأ بالوالدين والأقربين .

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى

---

(١) رواه مسلم ، والترمذي، عن ثوبان رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٥٦٠ برقم ١١٣٣) .

(٢) رواه البخاري ، ومسلم من حديث طويل (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٥٦٠ برقم ١١٣٤) وقد أورده بطوله النووي في باب الإخلاص وإحضار النيّة من كتاب (رياض الصالحين) .

(٣) رواه الطبراني ، والبزّار وإسناده حسن ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٦٩١ برقم ١٥٣٠) .

(٤) الإسراء : ٢٦ . (٥) البقرة : ٢١٥ .

ذي الرحم ثنتان : صدقة وصلة » (١) أي فيها أجران : أجر الصدقة ، وأجر صلة الرحم.

وأفضل ما تكون الصدقة علي القريب إذا كان بينك وبينه شيىء من الخصومة والجفوة ، كما في الحديث الصحيح : « أفضل الصدقة : الصدقة علي ذي الرحم الكاشح » (٢) . أي : الذي يضمر في كشحه لك خصومة أو عداوة ، لأنّك في هذه الحالة لا تعطيه مجاملة ولا مودّة بمودّة ولا إحسانا بإحسان ، بل تعطيه لله عزّ وجلّ ، ولحقّ القرابة بينك وبينه .

مع هذا كلّه هناك حقّ الزكاة ، الحق الماليّ الثابت الدوريّ المحدّد في نظر الإسلام.

الزكاة ثالثة دعائم الإسلام بعد التوحيد والشهادة للنبي عليه الصلاة والسلام بالرسالة وإقامة الصلاة ، فلا بدّ أن تبذل من مالك ، وقد جاء في بعض الأحاديث :

« برىء من الشحّ من أدّى الزكاة ، وقرى الضيف ، وأعطى في النائبة » (٣) .

يبرأ الإنسان من الشحّ : إذا أدّى الزكاة الواجبة عليه ، وقرى الضيف الذي يحلّ به ، وأعطى في النوائب التي تنزل بالمسلمين : زلازل ، جهاد ، مجاعة . . . الخ .

بهذا يبرأ الانسان من الشحّ ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٤).

وهناك أناس يعطون فوق هذا كلّه ، كان الإمام اللّيث بن سعد - وكان يُقارن بالامام مالك - من أغنياء المسلمين ، وقالوا : إنّ دخله السنوي كان ثمانين ألف دينار وما وجبت عليه زكاة قطّ ، لأنه ما كان ينتظر بالمال حتى يحول عليه الحول ، بل يتصدق

---

(١) من حديث سلمان بن عامر رضى الله عنه ، رواه النّسائي ، والترمذي وحسّنه ، وابن خزيمة وابن حبّان في صحيحيهما ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١/ ٢٨٨ ، الحديث ٤٦١)

(٢) رواه الطبراني في الكبير ، ورجاله رجال الصحيح ، وابن خزيمة في صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ٢٨٩ ، الحديث ٤٦٢) .

(٣) ذكره ابن كثير في تفسير سورة الحشر نقلاً عن ابن جرير الذي رواه بسنده عن أنس رضي الله عنه (٤/ ٣٣٩) طبعة الحلبي .

(٤) الحشر : ٩ .

بكلّ ما يجمعه ، فالمال من الله وإلى عباد الله ، جاءت امرأة تسأله شيئا من عسل ، فأمر لها بزقّ (جرّة كبيرة) فقال له بعض جلسائه : تسألك أكلة عسل فتعطيها زقًّا ! فقال : إنها تسأل على قدر حاجتها ، ونحن نعطيها على قدر نعمة الله علينا !

وكذلك كان عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، كان من كبار الأثرياء ، ومن كبار الأسخياء أيضا ، وكان من خصاله وفضائله المشهورة أنه لا يردّ سائلاً يؤمّه في حاجة قط ، ولمّا لامه بعض هؤلاء الذين يبخلون الناس ، قال : إن الله عوّدني عادة وعوّدت عباده عادة ، عوّدني أن يعطيني وعوّدت عباده أن أعطيهم ، وأخشى إذا قطعت عادتي عنهم ، أن يقطع عادته عنّي !

هكذا كان القوم ، لم يكونوا يقتّرون بل كانوا ينفقون ، والإنفاق في الخير لاسرف فيه ، كان بعضهم قد جاء بصرّة من فضّة في سبيل الله فقيل له : يا فلان لا خير في إسراف ، قال : ولا إسراف في الخير ، والصحابه - رضوان الله عليهم - كانوا يتسابقون في البذل عند الحاجة إلى تمويل العسكر المسلم في الغزوات ، كان هذا يدفع الآلاف ، وهذا يدفع عشرات الآلاف ، وهذا يدفع مئات الآلاف ، وهذا يجهّز جيشاً بأسره (١).

وفي إحدى الغزوات: جاء عمر - رضي الله عنه - بشطر ماله إلى النبي ﷺ ، وكان يظنّ أنّ أحداً لم يعط مثل هذا من قبل ، فإذا بأبي بكر - رضي الله عنه - يأتي بكلّ ماعنده ، فسأله النبي ﷺ : « يا أبا بكر : ما أبقيت لأهلك ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله » (٢) ، لم يدع لهم شيئا .

وهذا يجوز إذا كان الإنسان قويّ الثقة بالله ، قويّ التوكل على الله ، ويعلم من أهله وأسرته مقدار توكّلهم وصبرهم أيضا .

أمّا إن كانوا لا يصبرون وليس عندهم مثل هذا اليقين والإيمان ، فلا ينبغي أن يبذل ماله كلّه ، لأنّهم لا يصبرون صبره .

---

(١) راجع في هذا (حياة الصحابة) للكاندهلوي ، باب (إنفاق الصحابة في سبيل الله).

(٢) أخرجه أبو داود ، والترمذي وقال : حسن صحيح ، والدارمي ، والحاكم ، والبيهقي ، وأبو نعيم في الحلية (حياة الصحابة : ٢/ ١٥٠) ولفظ الترمذي : « أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدّق فوافق ذلك مالاً فقلت : اليوم أسبق أبا بكر ان سبقته يوما ، قال : فجئت بنصف مالي ، فقال رسول الله ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ قلت : مثله ، وأتى أبو بكر بكل ما عنده ، فقال : يا أبا بكر : ما أبقيت لأهلك ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله . قلت : والله لا أسبقه إلى شيء أبداً .

فأبو بكر علم أنّه وأهله قادرون على الصبر فلذلك أعطى ماله كلّه لله .

إنّ هؤلاء كانوا على ثقة أنّ الله تبارك وتعالى لا يضيع عليهم شيئاً « ما نقص مال من صدقة »(١) ،أو « ما نقصت صـــدقة من مال »(٢) ، على هذا حلف رسول الله ﷺ ، فالمال لا تنقصه الصدقة بل تزيده ، يقول الله تعالى : ﴿ .. وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (٣) ، ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ (إذا أنفقتم) وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ،(الخصلة القبيحة البالغة القبح وهي البخل) ، وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ (أي في الآخرة) وَفَضْلاً (أي سعة في الدنيا) ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٤) ، وأكثر الناس يصدّقون وعد الشيطان ، ولا يصدّقون وعد الرحمن ! أو يصدّقونه ولكن لا يضعونه موضع التنفيذ ، بل يغفلون عنه .

عباد الرحمن « إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا » لم يقتّروا على أنفسهم ، لم يقتّروا على أهليهم ، لم يقتّروا على أقاربهم ، لم يقتّروا على جيرانهم ، لم يقتّروا في النوائب والنوازل التي تنزل بالمسلمين ، وقبل ذلك كلّه : لم يقتّروا ولم يبخلوا بحق الله الأوّل عليهم وهو (أداء الزكاة) .

وهم - أيضاً - لا يسرفون إذا أنفقوا ، والإسراف : إمّا النفقة في معصية الله عز وجلّ ، كما جاء عن السلف : لو أنّ امرءاً أنفق ماله كلّه في الحقّ والخير لم يكن مبذراً، ولو أنفق مدًّا و ـــداً في باطل وشرّ كان مبذّراً .

من أنفق ماله في خمر .. في مخدّرات ... أو في ترف محرّم كأواني الذهب والفضّة ، وتماثيلهما ، في أي شيء من الحرام ، فهذا إسراف وتبذير ولا شك .

(١) كما في حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه مرفوعا : « ثلاث أقسم عليهنّ ..: مانقص مال عبد من صدقة .. . » رواه أحمد في مسنده (٤/ ٢٣١) والترمذي وقال : حسن صحيح (٢٣٢٦) .

(٢) رواه مسلم ، والترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وتتمّته : « وما زاد الله عبداً بعفو إلاّ عزّا ، وما تواضع أحد لله إلاّ رفعه الله عزّ وجلّ »(المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : الحديثان ١٤٦٢، ١٧٥١) .

(٣) سبأ : ٣٩ .

(٤) البقرة : ٢٦٨ .

وإمّا إنفاق المال وتبديده في المباحات ، فالمسلم إذا أنفق لا يتوسّع أكثر من طاقته ، يمدّ رجليه على قدر لحافه ، يوازن بين دخله وخرجه ، بين إيراده ومصروفه ، فلا يتوسّع ثمّ يورّط نفسه في الدَّين ، والدَّين همّ بالليل ومذلّة بالنّهار ، ولعلّ الأجل يوافيه قبل أن يوفيّ ما عليه ، ويكون مرهوناً بدينه ، فلماذا يورّط نفسه في هذا ؟؟ وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يستعيذ بالله تعالى من ضلع الدَّين وغلبة الرجال (١).

الناس يستهينون بالديون ، ويتوسّعون في الشراء بالتقسيط والآجال ، ويضيّقون على أنفسهم ، وأولى بالمسلم أن يوازن بين أحواله ، إلاّ إذا اقتضته حاجة إلى أن يستدين، فليستدن ولينظّم أموره حتى يقضي دَيْنه ، ولينو وليصمّم على أداء الدَّين ، والله تعالى إذا عرف صدق نيّته أمدّه بمعونته ومساعدته ، ففي حديث البخاري : « من أخذ أموال النّاس يريد أداءها أدّى الله عنه ، ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله» (٢) أي : أهلكه وأهلك ماله .

هذا هو شأن الإنسان المسلم : إذا أنفق لا يسرف . . لا يضيّع المال ، فقد نهى النبي ﷺ عن إضاعة المال (٣) . . عن إضاعة هذه النّعمة . . عن تضييع هذه الأمانة .

أيّ درهم أو دينار في يدك ثق أنّه ليس لك ، إنّه للأمّة كلّها ، إذا ضيعّته في غير حق فقد ضيعّته على نفسك وضيعّته على الجماعة . . على الأمّة الإسلاميّة .

ولهذا فالذي ينفق ماله في شرب الدخان - مثلا - يضيّع هذا المال على نفسه وعلى الأمّة ، يضرّ نفسه بحرّ ماله ، يشتري ضرره بفلوسه ، ولمن يدفع هذه الفلوس ؟ لشركات التدخين العالميّة الاستعماريّة !

المال نعمة يجب على المسلم أن يحافظ عليها .

---

(١) في الدعاء المأثور عنه ﷺ : « اللّهمّ إنّي أعوذ بك من الهمّ والحزن ، والعجز والكسل ، والبخل والجبن ، وضلَع الدين وغلبة الرجال » رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ، كلّهم عن أنس بن مالك بألفاظ متقاربة ، واللفظ للبخاري (فيض القدير للمناوي : ٢/ ١٥١-١٥٢ برقم ١٥١٣) .

(٢) رواه البخاري ، وابن ماجه ، وغيرهما ، عن أبي هريرة رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢/ ٥٢١ ، الحديث ١٠١٨) .

(٣) في حديث المغيرة بن شعبة المتفق عليه مرفوعا : « إنّ الله تعالى حرّم عليكم : عقوق الأمّهات ، ووأد البنات ، ومنعا وهات ، وكره لكم : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال» صحيح الجامع الصغير وزيادته (١٧٤٩) .

كم من مشروعات إسلاميّة في بلاد إسلامية تحتاج إلى تمويل ولا تجد من يموّلها ؟ كم من مدارس نحتاج إلى أن تقوم ؟ كم من مساجد نحتاج إلى أن تُشيّد ؟ كم من مكاتب لتحفيظ القرآن ، وكم من مراكز إسلاميّة نحتاج إليها ؟ كم من مرضى يفتقرون إلى الدواء ؟ كم من مشرّدين يفتقرون إلى البيوت ؟ كم من يتامى يفتقرون إلى من يكفلهم ؟ كم من جياع يريدون أن يأكلوا وليس هناك من يعطيهم ؟ !

ألقلّة المال لدى المسلمين ؟ لا والله ، المال كثير ، ولكنّه يُبعثر - للأسف - في غير وجهه .

كم من أناس ينفقون الألوف ، وعشرات الألوف ، ومئات الألوف في غير ما يرضي الله تبارك وتعالى ، فإذا طلبت منهم شيئاً لله كفّوا أيديهم وشحّت أنفسهم ؟!

ولا عجب أن وصف لنا القرآن قوماً من النّاس حينما قال : ﴿ . . إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ من فَضْلِه ، وَأَعتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا * والَّذِينَ يُنفِقُونَ أَموَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ (١) .

أنظروا : وصفهم بالبخل . . البخل في أنفسهم ، وتحريض الآخرين على البخل، ووصفهم - في الوقت نفسه - بأنهّم ينفقون أموالهم رئاء النّاس ، أي في المظاهر الزائفة . . في الأحفال التي يتحدث الناس عنها . . في الولائم التي يتسامع النّاس بها ، حيث تُذبح الذبائح الكثيرة ، ولا يُؤكل منها إلاّ العشر أو أقلّ من العشر ، ثمّ يُرمى الباقي هنا وهناك ، وهناك أناس يحتاجون إلى اللّقمة فلا يجدونها !

أموال تُضيّع هنا وهناك رئاء النّاس ، الرياء الاجتماعي والرياء الديني : كم أفسدا النيّات وأفسدا القلوب ، وأضاعا الأموال على هذه الأمّة .

الإسراف - للأسف - أصبح سمةً من سماتنا ، نبخل عن الواجبات ونسرف في المحظورات أو فيما لا نفع فيه .

نحن في حاجة إلى أن نضبط أنفسنا . . أن نضبط استهلاكنا ، يتحدثون الآن عن ترشيد الإنفاق ، ونحن في حاجة إلي أن نرشّد الإنفاق والاستهلاك في كلّ شيء .

نحن نسرف في استهلاك الماء ، ونسرف في استهلاك الكهرباء ، ونسرف في

(١) النساء : ٣٦-٣٨ .

استهلاك الطاقة ، ونسرف في استهلاك السيّارات ، ونسرف في استهلاك الأجهزة والأدوات ،كل شيء لا قيمة له عندنا ، كأنّ هذه الأموال أموالنا نحن ليست أموال اللّه في أيدينا .

نحن في حاجة إلى أن نحافظ على هذا كلّه (١) .

وبعض الناس يحافظ على ماله هو ، الذي يملكه ، ولكنّه إذا كان موظّفا في حكومة ، أو موظّفاً فى مؤسّسة ، أو موظّفاً في شركة ، أسرف في المال الذي تحت يديه، وأنفق وبدّد ، وتوسّع وبعثر .

لا ،إنّ من صفات عباد الرحمن أنهمّ : ﴿ إِذَا أَنفَقُوا ﴾ من أموالهم أو من أموال غيرهم التي ائتمنوا عليها ﴿ لَمْ يُسرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾ إنهمّ معتدلون في كلّ شيء ، والاعتدال خلق من أخلاق الإسلام .

مرالنبي ﷺ على سعد وهو يتوضّأ ، فقال له : « لا تسرف في الماء » فقال : وهل في الماء من إسراف ؟ قال : « نعم وإن كنت على نهر جار »(٢) : حتى لو توضّأت من نهر تجري مياهه ، ولا يضرّ النّهر إن أخذت منه أو زدت ، ولكن ليكن هذا خلقاً لك . . سمةً من سمات شخصيّتك .

هذه أخلاق عباد الرحمن ، نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا منهم ، إنه سميع قريب ، ادعوا الله تعالى يستجب لكم .

* *

(١) أنظر : فصل (القيم والأخلاق في مجال الاستهلاك) من كتاب الأستاذ القرضاوي (دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الاسلامي) ص ١٩٥-٢٥٧ نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة .

(٢) رواه ابن ماجه ، وأحمد عن عبد الله بن عمرو ، وقال البوصيري في الزوائد : إسناده ضعيف لضعف حي بن عبد الله المعافري وابن لهيعة (زاد المعاد لابن القيم بتحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط : ١/ ١٩٢) ، وهو الحديث (٤٢٥) في ابن ماجه ، ولكنه يقويه حديث ابن عمر قبله (٤٢٤) : « لا تسرف ، لا تسرف » .

● **الخطبة الثانية :**

أمّا بعد فيا أيها الإخوة :

ورد أنّ في يوم الجمعة ساعة إجابة ، لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله بخير إلاّ استجاب له ، ولعلّها تكون هذه الساعة .

اللّهمّ إنّا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا ، اللّهمّ أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كلّ شرّ .

اللّهمّ إنّا نسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، ونسألك كلمة الحق في الغضب والرضا ، ونسألك القصد في الفقر والغنى ، ونسألك الإخلاص في السّرّ والعلانية .

اللّهمّ اجعل يومنا خيراً من أمسنا ، واجعل غدنا خيراً من يومنا ، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلّها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

اللّهمّ اغننا بحلالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصيتك ، وبفضلك عمنّ سواك .

اللّهم انصر أمّة الاسلام على من عاداها ، اللّهمّ عليك بالكائدين لها .

اللّهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام ، اللّهم ردّ عنا كيدهم ، وفلّ حدّهم ، اللّهم إنا نجعلك في نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم .

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَي الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١) .

اللّهمّ آمين .

﴿ . . وَأَقِمِ الصَّلاَةَ ، إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ . . ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٤٧ .   (٢) العنكبوت : ٤٥ .